الخوف والرجاء

عباد الله، إن الله تعالى خلق الخلق، وأرسل الرسل، وبيَّن ما يسعد البشر، ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ ﴾(يونس: ١٠٨)، وقد بين الشرع الحنيف النهج الصحيح في السير إلى الله تعالى.

ولكن من الناس من يتبعون أهواءهم، ويا ليتهم يقفون عند هذا، بل لكونهم يريدون أن يريحوا أنفسهم؛ فإنهم يلوون آيات الشرع على حسب أهوائهم، فإن كثيرا من الناس يفرطون في طاعة الله ويفعلون المعاصي، ثم يقولون بألسنتهم، أو بقلوبهم، أو بأعمالهم: إن الله غفور رحيم، كلمة حق وسوس بها الشيطان وأريد بها باطل.

بل ويتجرأ بعضهم، ويتّهم الدعاة والعلماء والمصلحين بأنهم لا يفهمون في دين الله؛ لأنهم يأتون بآيات الخوف وآيات الترهيب، كل ذلك اتباعا لأهوائهم أو تقليدا لغيرهم.

وفي هذه الخطبة بإذن الله أبين لإخواني أصحاب تلك الأفكار المغلوطة أنهم أخطئوا مرتين؛ أخطئوا عندما لم يتبين لهم مقصد الشرع في عبادة الله بالخوف والرجاء، وأخطئوا مرة ثانية عندما لم يفهموا الرجاء أو حسن الظن الذي يريدونه ويدندنون به.

بداية: إن الشرع الحنيف بَيَّن للمكلفين أنهم يسيرون إلى الله بجناحين، هما: الخوف والرجاء، يقول جل شأنه: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[المائدة: ٩٨]، ويقول تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[السجدة: ١٦]، وآيات كثيرة في الرجاء، وكذلك مثلها في الخوف، إذن فالشرع يطلب منك أن تعبد ربك وتتقرب إليه بتدبر وتذكر آيات الخوف وكذلك آيات الرجاء، ثم على قولهم: إننا نرجو الله، ونحسن الظن، وما إلى ذلك؛ فهم لم يعلموا حقيقة هذا المعنى، بل فعلوا خلاف المقصود؛ فالرجاء، أو حسن الظن، أو الدين يسر، أو ما إلى ذلك، له معنى، فالرجاء: هو ارتياح القلب لشيء محبوب عنده، فمن رجا شيئا؛ استلزم لرجائه ثلاثة أمور:

١. محبته لما يرجوه.
٢. سعيه في تحصيله بقدر الإمكان.
٣. خوفه من فواته.

فلا يتحقق الرجاء، وحسن الظن، ويسر الدين، ومحبة الله لنا إلا بالعمل والسعي، فلابد من الأخذ بأسباب الرجاء، فهؤلاء الذين يتركون الطاعات ويسعون إلى المعاصي، يقولون: إن الله غفور رحيم، فهم لا يأخذون بأسباب النجاة، وإذا تكالبوا على الدنيا وضيعوا فيها جهدهم وأعمارهم؛ قالوا: لابد من الأخذ بالأسباب؛ تلك إذا قسمة ضيزى.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وقد فهم ذلك السلف، فيقول الحسن البصري رحمه الله: **(لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّمَنِّي وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ)**[1]، أي ليس الإيمان بأن تتمنى الجنة والرحمة ولكن ما كان في القلب ودفع الناس إلى العمل .

والآن نعلم مدى فهم الحسن البصري عندما قيل له: **(إِنَّ قَوْمًا أَلْهَتْهُمْ أَمَانِيُّ الْمَغْفِرَةِ حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا وَلَا حَسَنَةَ لَهُمْ، وَقَالُوا: نَحْنُ نُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ وَكَذَبُوا، لَوْ أَحْسَنُوا الظَّنَّ لَأَحْسَنُوا الْعَمَلَ)**[2] .

ويقول يحيى بن معاذ رحمه الله: **(مِنْ أَعْظَمِ الِاغْتِرَارِ عِنْدِي التَّمَادِي فِي الذُّنُوبِ عَلَى رَجَاءِ الْعَفْوِ مِنْ غَيْرِ نَدَامَةٍ، وَتَوَقُّعُ الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِغَيْرِ طَاعَةٍ، وَانْتِظَارُ زَرْعِ الْجَنَّةِ بِبَذْرِ النَّارِ، وَطَلَبُ دَارِ الْمُطِيعِينَ بِالْمَعَاصِي، وَانْتِظَارُ الْجَزَاءِ بِغَيْرِ عَمَلٍ وَالتَّمَنِّي عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَعَ الْإِفْرَاطِ**

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا ... إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ)[3] .

فارجع عبد الله إلى كتاب الله وإلى سنة نبيك ﷺ، ولا تَسِر خلف كل ناعق أو خلف أهواء نفسك، فكيف لا تخاف من الله؟ وكيف لا تُخَوَّف بالله؟ قد فعل ذلك خير الناس ﷺ، بل حث على الخوف من الله قائلا: **(مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ)**[4]، وأدلج: أي سار في أول الليل خوفا من فوات مراده.

وقد بَيَّنَ الله تعالى آيات الرجاء في كتابه كما بَيَّنَ آيات الخوف، فمن العلماء من يرى أن أرجى آية في القرآن هي: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ

---

[1] تفسير الزمخشري رحمه الله (٥٦٧/١).

[2] تفسير الزمخشري رحمه الله (٥٦٧/١).

[3] إحياء علوم الدين (١٤٤/٤)، للغزالي رحمه الله.

[4] أخرجه الترمذي رحمه الله في سننه (٢٤٥٠)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (٢٤٥٠).

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣]، ، ومنهم من يرى أن أرجى آية قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، ويقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: **"أرجى آية هي قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾** [الشورى: ٣٠-٥٣]، **قال: إذا كان يكفر المصائب ويعفو عن كثير؛ فأي شيء يبقى بعد كفارته وعفوه؟!"**، وقيل أرجى آية: ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾ [الضحى: ٥]، **فقال ﷺ: (أَشْفَعُ لِأُمَّتِي حَتَّى يِنَادِيَنِي رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَيَقُولُ: أَرَضِيتَ يَا مُحَمَّدُ، فَأَقُولُ: «رَبِّ رَضِيتُ»)**[1].

أترضى حبيبي أن تكون منعما ... ونحن على جمر اللظى نتقلب

ألم يرضك الله في سورة الضحى ... وحاشا أن ترضى وفينا معذب

وقيل: آية الدين أرجى آية، فقد حفظ الله فيها بطرق متعددة دين المسلم وإن كان صغيرا، فدل ذلك على أن اللطيف الخبير لا يخزي المؤمن.

فإذا نظرت إلى هذه الآيات واطمأن قلبك؛ فبها ونعمت، أما إن استشعرت التقصير واللامبالاة؛ فتذكر آيات العذاب والخوف: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ ﴾ [آل عمران: ٢٨]، ﴿ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴾ [التكوير: ٢٦]، ﴿ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج: ١٢]، ﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١].

فعلى المسلم العاقل أن يتبع الشرع الحنيف، ويعبد ربه خوفا طمعا، وهذه الآية تحمل هذا المعنى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [المائدة: ٩٨]، وها هو رسولنا ﷺ في حديث واحد يجمع بين الخوف والرجاء فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **(لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جِبْرِيلَ إِلَى الْجَنَّةِ، فَقَالَ: انْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَجَاءَهَا وَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَرَجَعَ إِلَيْهِ قَالَ: فَوَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا فَانْظُرْ إِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَرَجَعَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خِفْتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ، قَالَ: اذْهَبْ إِلَى النَّارِ، فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَرَجَعَ إِلَيْهِ، فَقَالَ:**

[1] أخرجه البزار رحمه الله في مسنده (٦٣٨)، وحسن إسناده المنذري رحمه الله في الترغيب والترهيب (٤/٣٢٨).

وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلَهَا، فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا، فَرَجَعَ إِلَيْهَا فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُوَ مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا)[1].**

فليكن هذا في ذهن المسلم، الجنة والنار، الثواب والعقاب، الرجاء والخوف، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا، وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَقُولُ: قَطْ قَطْ بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ وَلَا يَزَالُ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا، فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ**)[2].

هكذا فرسولنا صلى الله عليه وسلم يبين للدعاة وللعباد كيف يدعون ربهم خوفا وطمعا.

إذن فلتسمع قوله صلى الله عليه وسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (**جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلَائِقُ حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ**)[3].

فلا تظن أن رحمة الله ستنالها بلا عمل، فاحذر التقصير واحذر النار، فقد بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم كذلك شدة النار قائلا: (**نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، قَالَ: فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا**)[4].

فنار جهنم عباد الله: "**أوقد عليها ألف عام حتى احمرت، وألف عام حتى ابيضت، وألف عام حتى اسودت، فهي الآن سوداء مظلمة**"، والعياذ بالله.

فتجهز عبد الله للقاء الله بأن تتبع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لتنال شفاعته يوم القيامة، وترجو رحمة الله يوم القيامة، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَاسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ، فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ، فَقَالَ لَهُمْ: قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**)[5].

وتذكر أن الله سبحانه وتعالى سيظل عبادا له تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله: (**إِمَامٌ عَدْلٌ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ**

---

[1] أخرجه الترمذي رحمه الله في سننه (٢٥٦٠)، وصححه الألباني رحمه الله في شرح الطحاوية (٤٢٢).

[2] أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه (٧٣٨٤)، وأخرجه مسلم رحمه الله في صحيحه واللفظ له (٢٨٤٨).

[3] أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه (٦٠٠٠)، وأخرجه مسلم رحمه الله في صحيحه واللفظ له (٢٧٥٢).

[4] أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣٢٦٥)، وأخرجه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٨٤٣).

[5] أخرجه الترمذي رحمه الله في سننه (٢٤٣١)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (٢٤٣١).

دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ)[١].

ولأننا بين رجاء وخوف؛ فتذكر كذلك حديث المقداد رضي الله عنه: قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ، فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ)**[٢]، وأشار الرسول ﷺ بيده.

فكن عبد الله بين الرجاء والخوف، فكما أنك ترجو الجنة ونعيمها، وما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وترجو الفردوس الأعلى، وهي أعلى درجات الجنة، وتحب النبي ﷺ، وتعلم أن المرء مع من أحب، فعليك أيضا أن تتذكر أن جهنم واسعة، تنادي: **"هل من مزيد"**، فقد بين النبي ﷺ: (**يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا)**[٣].، وتتذكر أيضا أن قعرها بعيد، فقد بين النبي ﷺ: ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (**بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَالآنَ انْتَهَى إِلَى قَعْرِ النَّارِ)**[٤].

علم ذلك عباد الله الصالحين وعلم ذلك السلف، فها هو إبراهيم بن أدهم: (**أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ الْحَمَّامَ، فَمَنَعَهُ صَاحِبُ الْحَمَّامِ، وَقَالَ لَا تَدْخُلُ إِلَّا بِالْأُجْرَةِ، فَبَكَى إِبْرَاهِيمُ وَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِي أَنْ أَدْخُلَ بَيْتَ الشَّيَاطِينِ مَجَّانًا، فَكَيْفَ لِي بِدُخُولِ بَيْتِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ مَجَّانًا)**[٥].

ويقول الإمام أحمد رحمه الله: (**وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ خَوْفُهُ وَرَجَاؤُهُ وَاحِدًا، فَأَيُّهُمَا غَلَبَ هَلَكَ صَاحِبُهُ)**[٦].

فيا عبد الله، لا تغتر بالله، واعبده بمراده وبمراد رسوله ﷺ، وإن حدثتك نفسك بمعصيته؛ فكن في جانب الخوف، وإن سكنت أو خشعت؛ فكن في جانب الرجاء، أي: عاملها كالطفل، إن طغت؛ ذكرها

[١] أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه (١٤٢٣)، وأخرجه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٠٣١).

[٢] أخرجه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٨٦٤).

[٣] أخرجه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٨٤٢).

[٤] أخرجه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٨٤٤).

[٥] تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين (٨٢)، للسمرقندي رحمه الله.

[٦] الفتاوى الكبرى (٣٥٩/٥)، لابن تيمية رحمه الله.

بالعقوبة، وإن أطاعت؛ فذكرها بالمثوبة، واترك الكسل، والتسويف، والإهمال، دع ذلك عنك، دع عنك الإفراط والتفريط، دع عنك حب الشهوات واتباع الشيطان:

دع عنك ما كان في زمن الصبا ... واذكر ذنوبك وابكها يا مذنب

واذكر مناقشة الحساب فإنه ... لابد أن يحصى عليك ويكتب

لم ينسه الملكان حين نسيته ... بل أثبتاه وأنت لاهٍ تلعب

والروح منك وديعة أودعتها ... ستردها بالرغم عنك وتسلب